جمالية الموت في رحلة الشّاعر الجاهلي

أ. برادي بغداد
أستاذ مساعد.
كلّيّة الآداب. جامعة سيدي بلعباس

الموت صنو الحياة، وإن كان رهيبا مخيفا. فهو يعادل الحياة، بل قد يكون بديلا عن الحياة الأرضية متى استحالت عدما وافتقرت لمقوم الشرف الذي حيي به الجاهلي. ذلك أن الذات الجاهلية ما إن تضيق بها السبل إلى غاياتها وتسد أمامها الآفاق حتى تتمثل الموت مخرجا. إن الانتقال للعالم الآخر انتقاء ينبثاه الإنسان الجاهلي "عندما يجد نفسه عاجزا عن ممارسة المهمات الإنسانية. تلك التي يعتقد أنه مسئول عنها. ومنتدبا لها، وقيما عليها، وعندما تغدو الحياة نفسها عقيمة... عندئذ يقع الإختيار على الموت. إنه إذ ذاك أكثر جمالا ونبلا."[1]

وهذا عروة بن الورد[2] يرى الموت غاية في الجمال متى ما انقطعت عنه الحظوظ وتناءت به الأيام عن مقاصده.

دَعيني أَطُوفُ في البِلادِ لَعَلَّني ... أُفيدُ غِنًى فيهِ لِذي الحَقِّ مَحْمَلُ
أَلَيسَ عَظيمًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنا في الحُقُوقِ مُعَوَّلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعًا بِحَادِثٍ ... تُلِمُّ بِهِ الأَيَّامُ فَالمَوْتُ أَجْمَلُ

لقد أقام عروة لرحلته مقصدين الغنى وهو علامة تفيد دلالة الحياة الرغيدة أو الموت كبديل للحياة متى ما فقدت الأخيرة بريقها ويتكشف الموت جميلا "لأنه به وفيه تصبح الحتمية حرية. ويغدو التقييد انطلاقا[3] من قيود مأساة الحياة الأرضية إلى العالم الآخر. وقد وجد الجاهلي في الموت ما يرفعه "فوق هذا المستوى البيولوجي إلى مستوى القيم والتحلي بمكارم الأخلاق[4] باعتبار الموت إمكانية للخلاص. والحق أن مقصدية الشاعر الجاهلي كثيرا ما تقترن بالموت بديلا عند العجز في تحقيق المقاصد. إن الموت عند الفشل ليس ضرورة مريرة يرتضيها الجاهلي بل هو اختيار. وإن حتمية الفناء المادي موقف جميل يتجلى في الفعل البطولي الذي يقدم فيه الجاهلي الرحيل تحت وقع السيف بدل أن يموت حتف أنفه. وكأن جمالية الموت لا تكون إلا تحت بريق الرماح وغبار الخيل. يقول عنترة[5]:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الحُتُوفَ كَأَنَّنِي ... أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الحُتُوفِ بِمَعْزِلِ
فَأَجَبْتُهَا: إِنَّ المَنِيَّةَ مَنْهَلٌ ... لابُدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ المَنْهَلِ
فَاقْنَيْ حَيَاءَكِ لا أَبَا لَكِ وَاعْلَمِي ... أَنِّي امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

ويقول تأبط شرا[6]:

هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ وَمِنَّةٌ ... وَإِمَّا دَمٌ وَالقَتْلُ بِالحُرِّ أَجْدَرُ

ويقول الحصين بن الحمام المري[7]:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ ... لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

فَسَلَّتْ عَلَى الأَعْقَابِ ثُمَّى كُلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا

لقد أجمع الشعراء الثلاثة على جمالية الموت متى ما تبينت إستحالة تحقيق مقصدية الرحلة وكان الغائية توجب صورة ثنائية ضدية، تجمع إلى وجه الظفر بغاية الرحلة وجها آخر ،يحمل فرضية الإخفاق الذي يوجب حتمية الاختفاء.

إن هذا المشهد البطولي الذي يختار الشاعر (عنترة –تأبط شرا- الحصين بن الحمام المري.) بشكل طبيعة هويته القائمة على استهداف إحدى الحسنتين :المجد ساعة الظفر ،وهذه هي الحياة ،أو الموت تحت وقع السيوف ، وتلك حياة أخرى تقوم للذات ،وقديرثت ذمتها من العبودية عند استحالة تحقيق الغاية تلك هوية الجاهلي الشعرية، وهي أن يكون بطلا مجيدا، وأن لايكون عبدا، "وباعتبار أن المسافة بين الموت في دائرة الحتمية، والموت في دائرة الحرية [8] هي المسافة ذاتها بين العبودية والحرية ولذا يختار الشاعر الثانية.

هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ وَمِنَّةٌ وَإِمَّا دَمٌ وَالْقَتْلُ بِالْحُرِّ أَجْدَرُ

إن الموت في سبيل غاية سامية –تحققت أم لم تتحقق- هوية شعرية للجاهلي، إنها حياته الأبدية، والتي بهاينال الخلود في الضمير الإنساني، إذ العبرة ليست بالنتائج ولكن العبرة بعموم المقاصد والمساعي فامرؤ القيس لم يحقق الملك ولم يسترد المجد المفقود. ولكنه سعى إليه و أخذ بأسباب استرداده، ودون ذلك كان الدهر يقف سدا منيعا ليحول الرحلة عن مقصدها إلى نهاية درامية شكلها البعد الميتافيزيقي للرحلة. وهكذا تغدو رحلة المجد المفقود رحلة الموت المحتوم، يقف امرؤ القيس منه موقف المتأمل الذي فقد ضالته في تخليد ملك كنانة.

فالنهاية التي يصل إليها يوجهها بشرية الإنسان الذي لا يدرك ما تمنع العناية وانتهى امرؤ القيس "كما انتهى البطل جلجامش الذي سعى برحلته في أعماق المجهول لنيل الخلود، فعاد خائبا، وقد سطعت أمامه حقيقة لا ترد، وهي أن الإنسان ولد ليموت."[9]

يقول امرؤ القيس[10] :

أَرَانَا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ
عَصَافِيرٌ ، وَذِبَّانٌ، وَدُودٌ أَجَرٌ مِن مُجَلِّحَةِ الذِّئَابِ
وَكُلُّ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ صَارَتْ إِلَيْهِ هِمَّتِي وَبِهِ اكْتِسَابِي
فَبَعْضُ اللَّوْمِ عَاذَلَتِي فَإِنِّي سَتُكْفِينِي التَّجَارِبُ وَالتِّسَابِي

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ
أَيَبْعَدَ الحَارِثِ المَلِكِ بْنِ عَمْرٍو وَبَعْدَ الخَيْرِ حُجْرٍ ذِي القِبَابِ
أُرَجِّي مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لِينًا وَلَمْ تُغْفُلْ عَنِ السُّمِّ الهُضَابُ
وَأَعْلَمُ أَنَّنِي عَمَّا قَرِيبٍ سَأَشْئَبُ فِي شَبَا ظُفُرٍ وَنَابِ
كَمَا لَاقَى أَبِي حُجْرٍ وَجَدِّي وَلَا أَنْسَى قَتِيلًا بِالكُلَابِ

تظهر ذات امرئ القيس من خلال هذه القصيدة شخصية تراجيدية تتميز بالشجاعة وقبول الانهزام. هذا ما يجعلها شخصية بطلة تسمو بمقاصدها على المطامح الأرضية التي يشارك فيها الإنسان الحيوان

(الطعام والشراب) والتي لم يخلق لها الإنسان لهذا يتسامى امرؤ القيس بهمته في رحلاته التي سعى تحقيق المجد فيها. ولكن البطل التراجيدي يقبل على مضض إختيار القضاء الذي يحول مقصديته من أرضية لتنتهي إلى طموح امرئ القيس في استرداد ملك أبيه. وهكذا تتحول المقصدية إلى سامية يسمو بها الشاعر سمو أسلافه الذين سادوا وقتلوا دفاعا عن الملك. إن شخصية امرئ القيس في شعره تبرز شخصية تراجيدية تتصف بالشجاعة والرفعة والسعي لنيل المجد.[11]

وَكُلُّ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ صَـارَتْ إِلَيَّ هِمَّتِي وَبِهِ اكْتِسَابِي

وبذا يتجاوز امرؤ القيس تلك الممارسات البيولوجية (الطعام والشراب) ليتسامى بهمة الملوك. فإما أن يحقق ملكا يضاهي ملك آبائه أو يهلك دونه بميتة تماثل ميتة أسلافه (الحارث بن عمرو- حجر بن الحارث- شرحبيل بن الحارث). وتتسامى القصيدة لتجسيد هذه المأساة الفردية تجربة جماعية عرفها الجد والأب والعم فكأنها قدر محتوم على آل عمرو أن يقضوا في سبيل الملك متى ما كان في خطر. تلك تجربة يستحضرها الشاعر في لحظة وعي بذاكرة الوحدة الجماعية. إذ "لا يمكن أن تمحى من الذاكرة بصمة أعمال السلف الموسومة بالمثابرة والديمومة."[12] بل هي حاضرة بيعثها الدهر المغالب لرغبة الشاعر وإرادته. فيمنعه المجد (استرداد الملك) ليمنحه همة السمو بكبرياء إلى المعالي وفضيلة الجليل في النظر للبطولي. ما اليم أن يقضي الشاعر غريبا أو ينتهي إلى بلاد عربية، بل إن المهم أن يقضي فارسا بطلا. وأن يموت ميتة تحسب له يجد فيها العذر. هذه مقصدية افترضها امرؤ القيس متى ما تعذر استرداد الملك. لكنه قضى أثناء رحلته قبل تحقيق مقصدية المجد. لقد سعى امرؤ القيس لتحقيق ما عجز عنه أسلافه من استرداد الملك والمحافظة عليه ولم تكن همته دون همة آبائه. وكأنه أراد أن يصنع ما لم يصنعوه أو يهلك دون ذلك. ليظهر بطولته وتفرده في العظمة. فامرؤ القيس ما كان يرى في رحلته غير غايتين الملك وإلا فليكن الموت. وقد كانت النهاية التراجيدية. التي تجسد سعي البطل في مهمته العسيرة لتحقيق المقصد العظيم. وإذا كانت نهاية الرحلة تشير إلى خيبة المسعى. فإنها تؤكد همة الذات في المغالبة وعدم الاستسلام حتى تقضي، وهي تسعى لمجاوزة الهزيمة التي لا تعني إستحالة تحقيق الملك واسترجاعه. ولا تعني التخلي عنه عجزا. بل هي ذات إختارت مقصدا من اثنين الملك أو الموت. وهما مقصدان دالان على الخلود. فمتى ما امتنع استرجاع الملك المغتصب وهذا يتحققه خلود مادي. وبعدم وقوعه يتحول إلى سراب. تأكد الفصل البطولي في وجهه الآخر. إنه الموت. وذاك الخلود المعنوي. وتتسامى القصيدة لتطور دلالة تسامي الذات بذكر نسبها وتجاربها لتلحق بالأجيال الخالدة من سلفها. فالحارث الملك بن عمرو- والخير حجر ذو القباب. وإذا قد حققت الذات المجد (الخلود المعنوي) بما صارت عليه همتها بإقتفاء أثر الأسلاف (الأب والجد) في الشرف والرفعة. حتى وإن اقتضى الأمر الموت في سبيل الهمة فإنها ماضية إلى مقصدها دون رجعة أو تردد. وكأني بامرئ القيس يصطلح مع سلفه الماجد. وذلك بانتمائه عن معاقرة الخمرة ومعاشرة النساء إلى السعي في تحقيق الخلود. وقد تم ذلك وكان ما أراد في سبيل الملك. تلك مقصدية الشاعر. تمثلها يوعي منه للحياة ويفهم منه المصير الإنساني في لحظة شعورتكتشفت الذات فيها الحقيقة الوجودية للإنسان.

الإحالات:

1- أحمد محمود خليل- في النقد الجمالي- ص128.
2- ديوانا عمرو بن الورد والسموأل- تقديم اليستاني- دار الصادر- بيروت- لبنان- دت- دط- ص62.
3- أحمد محمود خليل- في النقد الجمالي- ص128.
4- كمال أبو ديب- الرؤى المقنعة- ص236.
5- شرح ديوان عنترة- الخطيب التبريزي- قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد- ص128.
6- شرح الحماسة "أبو تمام"-الخطيب التبريزي- عالم الكتب- بيروت- لبنان- دط- دت- ج39/1.
7- م.س.ن- ص.ن.
8- أحمد محمود خليل- في النقد الجمالي- ص129.
9- ريتا عوض- بنية القصيدة الجاهلية- ص373.
10- ديوانه- اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي- ص78- 79.
11- ريتا عوض- بنية القصيدة الجاهلية- ص373.
12- **Friedrich Nietzsche- Par-delà le bien et le mal- sigma édition-P328**